

خصائص الدرس التداولي في الخطاب التربوي

الحديث النبوي أنموذجا

الأستاذة: حورية رزقي
 قسم الآداب و اللغة العربية
 جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

Résumé:

Cette étude met en lumière les caractéristiques générales de la pragmatique et qui vise à mettre en évidence son impact sur le discours éducatif et spécifiquement dans le hadith. Puisque la pragmatique s'occupe de la manipulation de la langue, alors on se base sur ses sujets importants tels que ; les déictiques, les implicites, les actes de parole, et l'argumentation.

Il a été démontré que ces mesures ont aidé à comprendre le discours et a détecté son intention, l'originalité de son efficacité et ses effets chez les récepteurs (les apprenants).

Il ne fait aucun doute que l'étude pragmatique du discours éducatif du hadith a un rapprochement théorique et éducatif établi par les pédagogues.

ملخص:

تروم هذه الدراسة إلقاء الضوء على الخصائص العامة التي يتميز بها الدرس التداولي، حيث تهدف إلى إبراز أثرها في الخطاب التربوي، وبالتحديد في الحديث النبوي الشريف، وبما أن التداولية تهتم بالجانب الاستعمالي للغة، فكان التركيز على أهم موضوعاتها؛ مثل المفردات الإشارية، ومتضمنات القول، والحجاج، وأفعال الكلام.

وقد تبين أن هذه الإجراءات ساعدت على فهم الخطاب، والكشف عن قصديته، وأصالة فاعليته، وتأثيراته في المتلقين.

ولا غرو أن الدراسة التداولية للخطاب التربوي في الحديث النبوي الشريف فيها تقريب للنظريات التربوية المؤسس لها من قبل علماء التربية.

تعد لغة الخطاب بصفة عامة الأساس الواقعي والهام في كل وضعية تبليغية، كما أنها الوسيلة الأسمى والأكثر تأثيراً، فحينما نحدد لمن سنبلغ، وما هو مستوى حديثنا، وما نوعية المعلومات التي نريد تبليغها، نكون حينها قد حققنا شوطاً كبيراً من النجاح، ولا يتأتى ذلك إلا بتضافر عناصر كثيرة تتعلق بلغة الخطاب، لأن الخطاب هو الحامل اللغوي لمقاصد المتكلم موجهاً إلى المتلقي، وكون الخطاب يولد في سياق تخاطبي وبلغة مشتركة، فهو يقوم على عدة أسس تضبط العملية التخاطبية، حيث انبرت اللسانيات التداولية لدراسة علاقات البنية اللغوية بالمتكلم والمخاطب، أي المعاني التي تدور في فلك الحوار ودائرة التخاطب، وتعمل التداوليات بحكم كونها لسانيات ذات اهتمامات عملية، على وصف أفعال الخطاب وتفسيرها؛ مرتكزة في ذلك على مجموعة من القواعد أو الآليات، أهمها:

المعينات، أو (المفردات الإشارية) (les déictique)، ومتضمنات القول (les implicites)، والأفعال الكلامية (Les actes de langage) ، والحجاج (argumentation) ، وغيرها.

وعليه نسعى في هذه الدراسة للإفادة من هذه الآليات في استجلاء خصائص الدرس التداولي في تربويات صحيح البخاري، وإثرها نتساءل:

- كيف للتحليل التداولي أن يكشف لنا عمق المعنى في ضوء علاقته بموقف الكلام؟

- وهل لخصائص الدرس التداولي فاعلية البناء، وتوجيه قصدية المبلغ لإنجاح الخطاب؟

ومما لا شك فيه أن الخطاب التربوي في صحيح البخاري يتضمن الأثر التداولي بكل أبعاده، لأنه خطاب تبليغي، يحمل قصداً، في سياق معين، صادر عن ذات مبلغة (الرسول - صلى الله عليه وسلم -)، موجه إلى مخاطبين من المفترض فهم قصد المتكلم، فيحدث الأثر اللازم عنه، ويتضح ذلك في:

1 - المعينات: les déictiques

وتعرف أيضاً بالإشاريات، أو المؤشرات، أو المفردات الإشارية، كما أطلق عليها اسم "المبهات"، وهي ألفاظ تحمل معنى الإشارة دون أن تدل على معين،

"وهي ظواهر لغوية ترتبط مباشرة بالعملية التبليغية في الخطاب، وتتجلى خصوصيتها التبليغية في الاختلاف في إدراك مرجعياتها في الخطاب، فالمبهمات تتمثل في ضمائر المتكلم والمخاطب وفي ظروف الزمان والمكان، وهي لا تشير إلى شيء ثابت في العالم، ولا إلى أوضاع موضوعية في المكان والزمان، إنها تحيل دائماً إلى حالة الخطاب الذي ترد فيه."¹

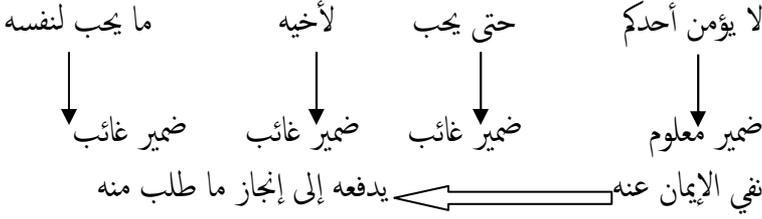
وتعد المعينات من أهم العناصر اللغوية التي يتحدد معناها في إطار المقام، وتتفرع إلى أربعة أنواع:

1 - الضمائر: دالة على الشخص، ولا تخلو من إبهام وغموض، فلا بد من شيء يفسرها ويزيل إبهامها، "والغرض من استعمالها هو الاختصار والإيجاز، لأننا نستغني بها عن تكرار اسم أو جملة."²

وتأخذ الضمائر دائماً دلالات جديدة في كل وضعية تواصلية لأنها غير محددة الدلالة أصلاً، ولا يخلو نص منها، وحضورها في الخطاب النبوي له دلالات تربوية، مثل قوله: "لا يُؤْمَنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"³.

فالمعينات في هذا الخطاب:

- ضمائر الغائب ← هو (مستتر)، والهاء في (أخيه ونفسه)، واستعمال هذا الضمير لدلالة الغائب المعلوم، فالخطاب موجه لكل شخص اتصف بالإيمان؛ قد يكون أحد الصحابة، أو أي أحد من عامة المسلمين، وقد يكون لكافة متلقي الخطاب من المسلمين، لذلك "ضمير الغائب المعلوم كبقية الضمائر، لا بد من مرجع لفظي أو معنوي، وإذا كان المرجع معنوياً أي مفهوماً من المناسبة أو السياق في غير ألفاظ سمي "القرينة المعنوية" أو "الغائب المعلوم."⁴ لذلك فدلالة الضمائر تحيل إلى معلوم، وقد يدرك المتلقي تماماً من المقصود بالخطاب، كما يدرك مضمون الخطاب التربوي، فهو موجه للحاضر "أحدكم" ثم يعدل عنه للغائب "هو"، وهذا يؤكد في تبليغ النصائح والإرشادات، أن تخاطب معلوماً ثم تكلفه بمضمون الخطاب، فالحال دالة على الإنجاز في المستقبل، ومحفزة على الالتزام بتحقيق النتائج، ونوضح هذا في ما يلي:



وهنا يتحقق الغرض التداولي من الضمائر الواردة في هذا الحديث، وفي كل وضعية تخاطبية تأخذ الضمائر دلالات جديدة، حيث نرى في قوله - صلى الله عليه وسلم - : "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"⁵.

نجد ضمير المخاطبين "اتقوا" ← أتم.

ثم ينتقل إلى ضمير المخاطب "تجد" ← أنت.

فما يشار إليه في العالم الخارجي هو جماعة المسلمين، أي معرفة المتلقين الذين يقصدهم المبلغ، فضمائر المخاطب يفسرها وجود المبلّغين وقت الكلام، فهي لم تعد مبهمة، وخالية من أي غموض، ولكن المعنى التداولي الذي نبحت عنه؛ لماذا انتقل المخاطب من توجيه كلامه من جماعة "أتم" إلى مفرد "أنت"؟

ما نلاحظه في هذا الخطاب الانتقال من الجمع إلى المفرد دليل على الاهتمام، ويرجح أن الأفراد للتخصيص، والجمع للعموم، لكن الأفراد يعطي خصوصية؛ فوضع الواحد موضوع الجماعة اتساع في اللغة، لذلك إذا حللنا ما سبق تداولي نلاحظ ما يلي:

- خطاب الجماعة "اتقوا" ← التماس كل أنواع الخير لتجنب النار.

- فضمير المخاطبين "أتم" ← مطالبين بتقديم أقل شيء (شق تمرة).

- خطاب المفرد "فإن لم تجد" ← القلة منهم لا يملكون شيئاً مادياً.

- فضمير المفرد "أنت" ← لا يستثنى عن الجمع، فيقدم كلمة طيبة.

ومن المعينات نجد أيضاً:

1 - 2 - أسماء الإشارة: وهو ما وضع لمشار إليه، وعرفه ابن الناطم: "اسم الإشارة

ما دل على حاضر، أو منزل منزلة الحاضر، وليس متكلماً، ولا مخاطباً."⁶

وكما لاحظنا من هذا التعريف فهي من المعينات التي تصنف ضمن ضمائر الحضور، لأنها تحيل على حاضر في وقت الكلام، كما تدل على استحضار الذوات أثناء الخطاب، ويرى هادي نهر "أن الغرض الحقيقي من استعمال ألفاظ الإشارة إنما هو للاستعاضة بها عن تكرار الأسماء الظاهرة أو الجمل، فهي كالضمائر من سمات التعبير الموجز."⁷

فعندما يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

"تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهِينِ، الَّذِي يَأْتِي هَوًّا يَبُوجُهُ، وَهَوًّا يَبُوجُهُ"⁸.

فاسم الإشارة "هؤلاء" دال على الجمع، يحمل معنى الضمير، وجاء عوضاً عن لفظ (الناس)، وذلك تجنباً لتكرارها في الخطاب، كما أضفى على الجملة نوعاً من التقسيم، "هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"، كذلك تمثل هذه المعينات درجة من درجات التحليل التداولي، حيث تظهر مدى حضور المبلغ في الخطاب عندما يوضح للمتلقين صفة ذي الوجهين، وعمله يندرج ضمن عمل المنافقين، الذين لا قرار لهم، ولا يؤمن جانبهم، قال القرطبي: "إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل الفساد بين الناس، وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة ما يرضيها، فيظهر لها أنه منها ومخالف لصددها، وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مدهنة محرمة."⁹

ولا تقل أهمية الإشارة عن أهمية الضمائر، يقول محمد خطابي: "المبدأ العام الثاوي خلف الإشارة وهو جعل الخطاب متماسكاً من خلال استحضار عنصر متقدم أو خطاب بأكمله."¹⁰

ويرد اسم الإشارة اختزالاً للكلام واقتصاداً للجهد، واجتناباً للتكرار، خاصة إذا كان النص السابق عناصر إشارية معجمية، أو تمثل مجموعة من المتواليات.

1 - 3 - اسم الموصول: اسم الموصول يربط السابق باللاحق ويحيل إليه، ويعوضه

ويختزله، ويمكننا ملاحظة هذا من خلال الحديث الشريف الموالى:

قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّما وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ."¹¹

فدلالة اسم الموصول "الذي" لا تتم إلا بوجود الصلة "تفوته"، فتصبح الجملة معلومة لدى المتلقي، والموصول "من الأدوات التي تشد من أزر الكلام النحوي بين ما تقدم ذكره، والعلم به، وما يراه من المتكلم أن يعلم به، أو يضمه إلى ما سبق من العلم به."¹²

فيشير الموصول في الخطاب السابق إلى ما هو معلوم، ويقصد منها "المصلي المتهاون في صلاته"، فهذه الإشارة مرتكرة على سياق تداولي، يحمل معنى التحذير من تأخير صلاة العصر لما لها من خصوصية لدى المؤمن، فدلالة المشار إليه حاضرة في ذهن المتلقي، ويعلم العواقب المترتبة عن ذلك، فالمطلوب بعد ذلك الاستجابة وهي ← صلاة العصر في وقتها.

وهذه الأسماء تأخذ دائما دلالة جديدة في كل وضعية تواصلية جديدة لأنها غير محددة الدلالة أصلا، ولا يخلو نص منها.

1 - 4 - أسماء الزمان والمكان: وهي من المعينات التي لا يتضح معناها إلا من خلال

السياق الذي وردت فيه، وتنقسم إلى إشارة زمانية، وإشارة مكانية؛

1 - 4 - 1 - الإشارة الزمانية: وهي معينات لغوية تدل على زمن معين يحدده

السياق قياسا إلى زمن التكلم الذي يشكل مركز الإشارة الزمنية في الكلام، ومعرفة لحظة التكلم يجنب المتلقي الالتباس والغموض، وتساعد على فهم الخطاب فهما صحيحا، فهي المرجع الذي يحال عليه، فألفاظ الزمان: اليوم، وغدا، وأمس، وبعد حين، لا يستطيع السامع ضبطها زمنيا، إلا بمعرفة لحظة التلفظ قياسا بزمن التبليغ، وهو "الزمن الذي يتحدد فيه الحدث الذي هو إنتاج الملفوظ، ويمكن الإشارة إليه داخل الملفوظ نفسه، ومن بين الكلمات التي تؤدي هذه الوظيفة نذكر..الآن، واليوم..."¹³

وعلى المتلقي معرفة زمن التلفظ ليتخذها مرجعا يحيل إليه، ونجدها في الخطاب

النبوي، يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال."¹⁴

ندرك أن لفظة "ثلاث ليال" إشارة زمنية، تدل على زمن النهي وعدده، وقد حددها بهذا الزمن ليدرك المتلقي أن الهجر لا يجب أن يتجاوز هذا المقدار من الزمن، "قال النووي: قال العلماء تحرم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال بالنص وتباح بالمفهوم، وإنما عفي عنه في ذلك لأن الآدمي مجبول على الغضب، فسمح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض..."¹⁵

فالإشارة الزمنية حددت للمتلقي مقدار الهجرة، ووضعت ذلك في إطار زمني معين، ولولا ذلك لوجد المبلغ مشقة في تحمل ثورته النفسية، وأصبح من الصعوبة الاستجابة لرسالة المبلغ لو توقف عند جملة: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه"، وبتحديد المرجع الزمني استطاع المتلقي أن يؤول الخطاب تأويلاً صحيحاً لخدمة الغرض التربوي.

وخاصة ذلك أن المعينات هي إشارات مبهمّة ولا يتحقق مدلولها التداولي إلا في سياق الخطاب، وقد مثلنا لذلك بعض العينات من الخطاب التربوي مستقاة من صحيح البخاري، وعرفنا أنها مجموعة من العناصر اللسانية تحدد الظروف الخاصة للخطاب، وتحيل إلى أطراف التواصل من مبلغ ومتلق، وتتضمن كل الضائر وأساء الإشارة، وأساء الموصول، وظروف الزمان والمكان، وغيرها.

2 - متضمنات القول: les implicites

يشكل التضمن عنصراً من عناصر الجملة ولكنه لا يظهر على مستوى السطح، وإنما يبقى غائباً عن الملفوظ ولا يمكن اكتشافه إلا عبر مجموعة من الاستدلالات المنطقية التي تنقل المخاطب من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني، و"الوصول إلى طبيعة متضمنات القول لن يتم دون معرفة قوانين الخطاب، بمعنى آخر أن نفهم الجانب الضمني والخفي من الكلام يستلزم منا أن نكون على معرفة ضمنية بالقواعد التي من شأنها أن ينتظم بها الكلام."¹⁶ فنجد المخاطب في بعض الأحيان لا يريد أن يصرح بمعنى الملفوظ لأسباب عديدة، "قد يكون مصدرها المجتمع بما يحويه من أخلاق وعادات ودين، أو سياسة...وقد يتجلى ذلك في وجود بعض الألفاظ المحاطة "بقانون الصمت" يمتنع المتكلمون عن التصريح

بها."17

ويندرج ضمن هذا العنصر نمطان من متضمنات القول: الافتراض المسبق والقول المضمر.

2 - 1 - الافتراض المسبق: présuppose ويسميه "طه عبد الرحمن"

الإضمارات التداولية، "وهو ذو طبيعة لسانية، بمعنى أنه يتم إدراكه عن طريق العلامات اللغوية التي يتضمنها القول."18 ويشكل خلفية ضرورية لنجاح العملية التبليغية، وهو متضمن في القول؛ سواء تلفظ به إثباتاً أو نفيًا، ويرى التداوليون أن الافتراض المسبق ذو أهمية قصوى في عملية التبليغ، وله دور أساس في تقديم معلومات جديدة للمتعم، فلا بد أن تكون له خلفية تنطلق منها، في حين يؤدي افتقاره إلى فشل عملية التبليغ، وتقف على بعض الأحاديث النبوية تحمل أبعاداً تلميحية حيث تظهر في شكل افتراضات مسبقة، يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

"لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"19.

إذا تتبعنا الأثر التداولي للفعل التبليغي في هذا الخطاب التربوي فإننا نقف في البدء على الافتراض المسبق للفعل "لا يؤمن أحدكم"، فماذا يفترض فهمه من هذا القول؟ فلفظ "لا يؤمن أحدكم" مؤداها أن المتلقي يدرك كنه الإيمان، ويعرف أهميته في حياته الدينية، كما يعلم أن نفيه عنه فيه ضياع وخسران.

ومن جهة أخرى فالمبلغ أيضا يدرك كنه الإيمان، و يعلم ما تعنيه هذه اللفظة بالنسبة للمتلقي، لذلك حرص على الابتداء بها تنبيها لأهمية الفعل التربوي، وهنا نقف على أهمية هذا الجانب من الافتراضات المسبقة لأنها ذات أهمية قصوى في عملية التواصل والتبليغ، فلا يمكن إعطاء معلومة للمتلقي إلا بافتراض وجود أساس سابق يتم الانطلاق منه والبناء عليه، وهنا لا يلزم المبلغ أن يظهر للمتلقي بأنه مؤمن، كما لا يتوجب على المتلقي أن يظهر للمبلغ أنه مؤمن، لأن صيغة "لا يؤمن أحدكم" تفترض أن يكون كل من المتكلم والسماع على علم بكنه الصيغة الخطائية، لذلك فالافتراض المسبق هو ما يقتضيه اللفظ ويفترضه.

ونوضح ذلك في الشكل الآتي:
الافتراض المسبق للفظ (لا يؤمن أحدكم)

المتلقي يعلم أنه مؤمن

المبلغ يخاطب مؤمنا



تحقق الفعل التبليغي لأنه انطلق من افتراضات متفق عليها.

فالنفي للكمال والتام، وليس نفياً لأصل الإيمان؛ فالأثرة وحب النفس تنقص الإيمان، لذلك فالفعل المتضمن في القول هو النصيحة التي تستلزم محبة المرء لأخيه ما يجب لنفسه، "وقال بعض الناس: المراد بهذا الحديث كف الأذى والمكروه عن الناس، وشبهه معناه قول الأحنف بن قيس قال: كنت إذا كرهت شيئاً من غيري لم أفعل بأحد مثله".²⁰ كما يستلزم هذا الفعل التحذير من الحسد، فالحاسد لا يجب لأخيه ما يجب لنفسه،

"والمحبة هاهنا هي مجرد تمني الخير لأخيه المسلم، فلا يعسر ذلك إلا على القلب السقيم غير المستقيم".²¹

كذلك التحذير من الأفعال الذميمة، والحث على الأخلاق الكريمة، "قال الكرمانى: ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء".²²

ويتأسس الفعل التبليغي في هذا الخطاب التربوي على ما يلي:

- التحذير والترهيب من الأخلاق الذميمة لأنها تنقص الإيمان وتضعفه.
- التعبير بالأخوة لإثارة كوامن الشفقة والمحبة.
- الحث على التواضع، والسعي وراء أسباب المحبة بين الناس.
- الدعوة إلى صفاء القلوب، والابتعاد عن الأثرة والأنانية.

وتنوصل إلى النتائج التي لم يصرح بها المبلغ ولكن دلت عليها الافتراضات المسبقة بعد فهمنا لدلالة الخطاب نفيًا وإثباتًا (لا يؤمن - يؤمن).

وجملة ما نتوصل إليه من مفهومنا للافتراض المسبق؛ أنه يدعم العملية التبليغية، فلو انعدم هذا العنصر لما استطاع المبلغ أن يوجه خطابه للمستمع، ولما تمكن من التأثير فيه.

2 - 2 - القول المضمّر: (sous – entendu) بعد تناولنا للافتراض المسبق الذي

تبين لنا أنه وليد السياق الكلامي، تأتي إلى النمط الثاني من متضمنات القول؛ وهو القول المضمّر، الذي تحدده ملاسبات الخطاب، "تقول" أو "ركبوني": ((هو كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث))²³، ويلجأ المبلغ إليه لأسباب كثيرة: تتعلق باللياقة، أو لمعالجة بعض الأخطاء وقع فيها الناس، فيفضل التلميح دون التصريح، "أضف إلى ذلك أنه في مقامات عديدة يضطر إلى استعمال متضمنات القول خشية، من خرق بعض العادات الكلامية الاجتماعية، إذ يلجأ إلى استعمال الحيلة ليضمن عدم جرح مشاعر المستمع".²⁴ ومثل ذلك نجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول:

"مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ". فَاسْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: "لَيْتَنَّهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُحْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ".²⁵ لقد استعمل النبي - عليه السلام -

لفظ "ما بال أقوام" في خطابه لجماعة المسلمين، فلم يوجه كلامه للمخطئين مباشرة إنما أضرهم كلامه، ولم يشهر بهم، تجنبنا للإحراج، وهذا أسلوب تربوي يساعد على حفظ السرية للمتلقين، وهدفه تقويم سلوك الناس ومحاسبة النفس بأن يراجع المعني حساباته بينه وبين نفسه من غير انزعاج.

3 - الاستلزام الحواري: (implication conversationnelle): ويعد من أهم

جوانب الدرس التداولي، وترجع موضوعاته إلى محاضرات "بول غرايس"، والمراد به إبراز ما يقال وما يقصد قوله، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بحمولتها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المبلغ أن يبلغه للمتلقى على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، كم

أن عملية التبليغ تتم في ضوء "التعاون"، ويرى غرايس أن كل حوار يقوم على هذا المبدأ حيث تتفرع عنه أربع قواعد: (قاعدة الكم وقاعدة الكيف وقاعدة العلاقة وقاعدة الصيغة) تضبط التخاطب في المقامات العادية، "فبين أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه، وقد يكون هذا الهدف محددًا قبل دخولها في الكلام أو يحصل تحديده أثناء الكلام".²⁶ ومنه يفترض من المتلقي أن يظهر تعاونًا ما لا يتصل بمقول قول المبلغ، بل بما يقصده، ونلاحظ ذلك في النص الآتي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "اتَّذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟".
 قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَدَّفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فُتِنَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ".²⁷ فعندما سأل المبلغ عن المفلس كان ينتظر إجابة أخرى هو يقصدها، وليست الإجابة الحقيقية حول معنى لفظه "المفلس"، وإذا استندنا إلى إجابة المتلقين نقول بأنها خرقت مبدأ التعاون في فرع العلاقة، أي علاقة الخبر بمقتضى الحال، وهي: ليكن إسهامك واردا في الحديث، فالسؤال عن المفلس في الحديث لا يتوقع منه المعنى المعروف والمتعارف عليه، وإلا أدى بنا ذلك إلى خرق قاعدة أخرى من قواعد مبدأ التعاون وهي: قاعدة الصيغة التي تتعلق بشكل القول لتحري الوضوح، ومن مقتضياتها: تجنب الغموض والالتباس، وليكن كلامك بينا ومعلوما لدى المتلقي، لذلك بين المبلغ المقصود للمتلقين حقيقة المفلس في نظره متجاوزا المعنى المعجمي لفظ، والهدف التربوي من ذلك هو بيان من المفلس الحقيقي في نظر الإسلام، وقد قام الاستلزام الحوارى بإبراز مقصد المبلغ، وتوضيح المعنى المطلوب، "لذلك فالاستلزام الحوارى يمثل مجموعة غير اصطلاحية، فالكلام المتبادل بين الأشخاص ليس مجرد تصريحات من دون معنى يفترق إلى بنية نسقية، ولكنه مجهود تعاونى يروم إلى تحقيق أهداف معينة"²⁸. فعندما أراد المبلغ أن يسأل عن معنى المفلس فهو يروم دلالة أخرى غير

الدلالة اللسانية المتعارف عليها.

4 - الحجاج: Argumentation

يعد الحجاج من الجوانب المهمة في الدرس التداولي، حيث يركز التحليل في التداوليات على اللغة بصفها نتاج بشري، ولكي تتوصل إلى نتيجة إيجابية لهذا التحليل علينا أن نأخذ بكل الأسباب والظروف المصاحبة للقول في بعده الاستعمالي، سواء تعلق الظرف بالجانب اللغوي أو النفسي أو الاجتماعي أو الثقافي.

والحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، أو إنجاز متواليات من الأقوال بعضها حجج، وبعضها الآخر نتائج، "وانبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها "أوستين وسيرل"، وقد قام "ديكرو" بتطوير أفكار وآراء "أوستين" بالخصوص، واقترح في هذا الإطار، إضافة فعلين لغويين هما فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج.²⁹، وتنطلق نظرية "ديكرو Oswald Ducrot" اللسانية من ثلاثة مبادئ أساسية هي:

- المبدأ الأول: أن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.
- المبدأ الثاني: أن المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.
- المبدأ الثالث: عدم الفصل بين الدلالات والتداوليات.³⁰

فالحجاج تقنية من تقنيات الخطاب، والخطاب مجال من مجالات التداولية التي تساعد على الفهم الدقيق لمقصدية التواصل، "فإن الإطار التداولي لعملية الحجاج تكمن في أنها تتدخل في آراء وسلوكيات المتكلم أو المستمعين عن طريق التأثير فيهم."³¹، وإذا عرضنا هذه التقنية على الخطاب التربوي ألفيناه يسعى إلى إبانة مقصدية الخطاب للتأثير في المتلقين باستخدام الدلائل العقلية والعلمية، بما له من بلاغة الإقناع، والتداولية أقدر على تحقيق ذلك، إذ إن وضعيات التلفظ في العملية الخطابية تساعد على إدراك كنه الملفوظ الحجاجي، وعندئذ يمكننا أن نسميه بالخطاب الإقناعي.

ومما ورد في هذا المجال ما يلي:
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُثِقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَتَضَمَّتْ".³²

نلاحظ تكراره لجملة "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"
ولا يأتي التكرار إلا لغاية حجاجية، وقد ذكر التكرار في هذا الخطاب أمام ثلاث
قضايا أساسية تكون أخلاقيات المجتمع:

- القضية الأولى ← الإحسان إلى الجار.
- القضية الثانية ← إكرام الضيف.
- القضية الثالثة ← الكلام الطيب.

فبتكرار الجملة السابقة فيها دلالة على أهمية هذه القضايا جميعا، وقد وظفه الرسول -
صلى الله عليه وسلم - لأن المقام يتطلب ذلك، ويحتاج إلى توكيدها لدى المتلقين لترسخ في
أذهانهم.

والتكرار هنا فيه حث على الأعمال، ونرى كيف صدر هذا الخطاب بالشرط، ليأتي
الجواب بعد ذلك ويشمل القواعد الأساسية التي يريد أن يحث الناس عليها،
فكانت القضية الأولى والثانية متعلقتين بحقوق الناس؛ الجار والضيف، فتنحريم أذى
الجار، سواء بالقول أو بالعمل، كذلك إكرام الضيف والإحسان إليه بكل ما نملك؛ ماديا
ومعنويا، ثم تأتي القضية الثالثة وتتعلق بخلق المسلم، وهو كل ما يتلفظ به حيث يشمل ما
ينطق به اللسان، وما يتعدى نفعه إلى الغير ومما يقتصر نفعه على صاحبه.
ونستنتج من ذلك أن نفي الإيمان هنا لا يراد منه النفي الحقيقي، وإنما نفي الانتصاف
بالمؤمنين، لأنه خالف الحق.

والتكرار حجة معتمدة للتأكيد، ومن مقاصدها التأثير والإقناع، وهذا ما حققه هذا
الخطاب التربوي، فالمبلغ اتخذ وسيلة تربوية لإبلاغ مقاصد مهمة وضرورية في حياة
المتلقين، "ولم يكن التكرار في الحديث النبوي ناجما عن فقر لغوي، ولا عن عجز في

التعبير، وإنما كان مقصودا متعمدا جاء ليحمل جزءا من المعنى المراد، وكان وسيلة من وسائل الدعوة وطريقة من طرائقها، يستعمله النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا وجد ضرورة لذلك³³، وقد لاحظنا أن القضايا السابقة من الأمور الهامة لذلك كررها المبلغ لترسخ في الأذهان.

وهذا يكون المبلغ قد حقق الغاية من توظيفه لهذه الوسيلة الإقناعية، كما يتحقق الهدف الذي سعى من أجله وهو إقناع المتلقي بالقضية.

5- الأفعال الكلامية: Les actes de langage

نشأت نظرية أفعال الكلام في ظل فلسفة اللغة على يد مجموعة من الفلاسفة، هم: "جون أوستين" J.L.Austin و"جون سيرل" J.R.Searle و"بول غرايس" H.P.Grice، ينتمون إلى مدرسة "فلسفة اللغة"، كانوا مهتمين بالطريقة التي تعبر فيها اللغة الإنسانية الطبيعية عن المعاني، كطريقة لفهم طبيعة الفكر والمنطق والتخاطب، وأطلق عليهم (فلاسفة التخاطب)، وتكمن أهمية هذه النظرية في كونها غيرت النظرة التقليدية للكلام ونظرت إلى اللغة في بعدها الاستعمالي باعتبارها قوة فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه، "وأن استعمال اللغة ليس هو إنجاز فعل مخصوص فقط، وإنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي"³⁴ وتحقق أفعال الكلام أغراضا إنجازية تبليغية من لدن المتكلمين، وغايات تأثيرية تخص ردود أفعال المتلقين، وقد عد الفعل الكلامي الوحدة اللغوية الصغرى للتبليغ وليست العلامة أو الجملة، "ولقد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه فعلا لغويا... يدل عليه قصد المتكلم، ومن حيث إنها برهنت على إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية"³⁵.

ولذلك فإن وظيفة اللغة الأساسية ليست تبليغ المعلومات والتعبير عن الأفكار، وإنما تحيل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية، "وتقوم هذه النظرية على النظر إلى اللغة على أنها أداء أعمال مختلفة في آن واحد، وما القول إلا

واحد منها، فعندما يتحدث المتكلم فإنه في الواقع يخبر عن شيء، أو يصرح تصريحاً ما، أو يأمر، أو يلتمس، أو يعد، أو يشكر،...³⁶

والفعل الكلامي أداة إجرائية فعالة، وتتميز عن الأفعال الخبرية،
ومما سبق نرى أن هذه النظرية تركز على القوة الإنجازية في أداء أفعال الحديث،
فبمجرد التلفظ بالقول نجز فعلاً، ولقد وردت أفعال عديدة في صحيح البخاري متضمنة
الفعل الكلامي مثل قوله - صلى الله عليه وسلم:

"لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ،
وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ".³⁷

فالفعل الإنجازي في هذا الخطاب مرتكز على النفي "لا حسد"، فالنفي في
الحديث نفي انبغاء، وليس نفي وقوع، فهو واقع في عالمنا كثيراً في غير الاثنتين، فالمعنى: لا
ينبغي ولا يشرع ولا يحمد الحسد إلا في اثنتين...، والمراد لا غبطة مشروعة إلا في
اثنتين".³⁸

ونرى قوة الفعل الإنجازي في هذا الخطاب تتحدد في قيمته الأخلاقية، فقوله:
"لا حسد إلا في اثنتين" ← تحددت أولويات التنافس الإيجابي، فالمتلقي
له مجالان للتنافس؛ كسب العلم، وكسب المال، فهما قوام الحياة البشرية.
ويتحقق الفعل الكلامي إذا صرفت الأفكار والجهود والطاقات في هذين المجالين
المتمثلان في أداء الخيرات والطاعات والأعمال الصالحات؛
"رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ" ← يتلوه: يعمل به.
فهو منشغل بقراءته، وبحفظه، وبتعليمه.
"وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ" ← يتصدق منه في كل
وقت.

ينفق ماله في سبيل الخيرات.
فالأعمال التداولية للفعل الإنجازي:
- قراءة القرآن وتديره.

- العمل به.
 - تعلمه وحفظه، وتفسيره وتدرسه.
 - إتيان المال في سبيل الله.
 - جواز الغبطة ومشروعيتها في أعمال الخير.
- ومما سبق نلاحظ أن الفعل الكلامي في الخطاب التربوي قد اهتم بالجانب الوظيفي، حيث "تنطلق اللسانيات التداولية من مبدأ هام؛ هو أنها لسانيات كلام (تركز على الجانب الاتصالي والوظيفي)"³⁹.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة تبين أن توظيف العناصر التداولية في الخطاب التربوي قد أسفر عن نتائج تمثلت مضامينها في الآتي:

- فمن خلال توظيف المعينات مكنت المبلغ من التواصل الناجح بالمتلقين؛ فجاءت الضمائر قصد الاختصار، وطلبا للإيجاز، وحضورها في الخطاب النبوي له دلالات تربوية حددتها الوضعية التخاطبية، كما أسهم المعنى التداولي في إزالة غموضها، أما استعمال أسماء الإشارة فيدل على استحضر الذات أثناء الخطاب، كما يسهم في تجنب تكرار الكلام خاصة ما سبق من متواليات،

ويفيد اسم الموصول الربط السابق باللاحق، ويشير إلى ما هو معلوم، ويتعاضد هذا والدرس التربوي، وتتميز الإشارات الزمانية بتحديد لحظة صدور الخطاب لتجنب الالتباس والغموض، وتساعد على فهم الخطاب واستيعابه، لأن الوظيفة التداولية لهذه الإشارات تتمركز في معرفة زمن التلطف قصد الإحالة إليه.

دلت متضمنات القول عن عناصر الخطاب الخفي، الذي تدركه البصائر بمعرفة القواعد التي ينتظم بها الكلام، ويتحقق ذاك في نمطين أساسيين هما: الافتراض المسبق، والقول المضمر.

ويعد الاستلزام الحوارية من أهم مكونات الدرس التداولي، والمراد به إبراز ما يقال، وما يقصد قوله، وضمنه تتم عملية التبليغ وفق مبدأ التعاون الذي وضع أسسه "بول غرايس"، حيث بين أن احترام هذا المبدأ بتعاون كل من المبلغ والمتلقي على تحقيق الهدف المنشود من الحديث.

ومن العناصر البارزة في الدرس التداولي الحجاج، فعلى إثره يتم تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، ودوره فعال في الخطاب التربوي، حيث يساعد على الفهم الدقيق لمقصدية التبليغ، ويحمل المتلقي على الاقتناع.

أما أفعال الكلام فهي لب التداولية، والهدف منها التوصل إلى صدق الخبر وإفادته، وجعل الكلام مناسبا للمقام، وترتكز على القوة الإنجازية للفعل، فبمجرد التلطف بالقول ننجز

فعلا، وهذا ما يسعى الخطاب التربوي إلى تحقيقه.
وقد تميز الدرس التداولي في هذه العينة من أحاديث صحيح البخاري بخصائص لسانية
أسهمت في إنجاز مختلف الأبعاد التربوية للخطاب.

الهوامش و المراجع.

- 1- عمر بلخير، دراسة بعض المفاهيم الإجرائية لتحليل التداولي للخطاب، (مدونة على الشبكة العنكبوتية) www.omarbelkheir.com
- 2 - هادي نهر، النحو التطبيقي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008م، ج1، ص 40.
- 3 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم: 13،
- 4 - انظر عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف بمصر، ط3، 1966م، ص 231
- 5 - البخاري، كتاب الأدب، باب: طيب الكلام، رقم: 5677، ج5، ص 2241.
- 6 - ابن الناظم أبو عبد الله بدر الدين محمد، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 51.
- 7 - هادي نهر، النحو التطبيقي، ص 68.
- 8 - البخاري، كتاب الأدب، باب: بَابُ مَا قِيلَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ، رقم: 5711، ج5، ص 2251.
- 9 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص 475.

- 10 - محمد خطايي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1991م، ص 175.
- 11 - البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته العصر، رقم: 527. ج1، ص 203.
- 12 - إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007م، ص 230.
- 13 - جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة: قاسم مقداد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، 1998م، ص 38.
- 14 - البخاري، كتاب الأدب، باب: الهجرة، رقم: 5725، ج5، ص 2256.
- 15 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص 492.
- 16 - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص 111.
- 17 - المرجع نفسه، ص 112.
- 18 - المرجع نفسه، ص 113.
- 19 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم: 13، ج1، ص 14.
- 20 - ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ج1، ص 65.
- 21 - بدر الدين بن أحمد العيني، عمدة القارئ، ج1، ص 231.
- 22 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص 58.
- 23 - عن عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص 118.
- 24 - المرجع نفسه، ص 112.
- 25 - البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب: رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم: 717، ج1، ص 261.
- 26 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م، ص 238.

- 27 - مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم: 2581، ص 1199.
- 28 - Paul.Grice , « Logic and Conversation », in. Cole and Morgan ed, Syntax and semantic 3 : Speech acts , new York Academic, 1970, p45.
- 29 - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مطبعة الأحمدية، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص 15.
- 30 - Les échelles argumentatives, Paris. Ed. Minuit, 1980, O. Ducrot PP 100-101.
- 31 - عمر بلخير، تحليل الخطب المسرحي، ص 123.
- 32 - البخاري، كتاب الأدب، باب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، رقم: 5785، ج5، ص 2273.
- 33 - أمجة بدر الدين، التكرار في الحديث النبوي الشريف، ص 100.
- 34 - فان ديك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2000م، ص 227.
- 35 - محمد العبد، تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيل علوي، ص 307.
- 36 - محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004م، ص 34.
- 37 - البخاري، كتاب التوحيد، باب: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَرَجُلٌ يَقُولُ لَوْ أُوتِيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا فَعَلْتُ كَمَا يَقَعُلُ". رقم: 7090، ج6، ص 2737.
- 38 - موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، دار الشروق، القاهرة، ط1، ج3، ص 628.

39 - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، للنشر والتوزيع،
العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص 236.